تطور الطب في بغداد في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي
" أوحد الزمان ابن ملكا نموذجاً "

د. مها سعد على ابراهيم

مدرس التاريخ الإسلامي، بقسم التاريخ كلية الآداب،
جامعة حلوان

الملخص:

تمتعت بلاد العرب بحكم موقعها الجغرافي بعلاقات واتصالات سياسية واقتصادية وتجارية وثقافية مع ما جاورها من الشعوب والأمم كالفرس والروم، واقتبس العرب بعض العادات الطبية من الحضارات القديمة كالحضارة اليونانية والرومانية وبلاد الرافدين.

بدأ علم الطب عند المسلمين من العصر النبوي، وانتعش مع العصر الأموي حيث بدأ التأثير بالاتجاه اليوناني، ثم شهد الطب نقلة كبيرة وتطور مزهل في عهد بني العباسي، من ناحية الدراسة والتطبيق، فقد عنى خلفاء بنو العباس بعلم الطب عناية كبيرة، واستقدموا أطباء مهرة، وحفل بلاطهم بأطباء كثر من مختلف الطوائف المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس.

من بين هؤلاء الأطباء البارزين الطبيب أوحد الزمان ابن ملكا، الذي بوصف باليهودي في أكثر عمره، إلى أن أسلم في أخر أيامه، وكان الطبيب ابن ملكا أحد أطباء الخليفة العباسي المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ) كان ابن ملكا عالماً موسوعياً كغيره من العلماء في العصور الوسطى، فكان له اهتمامات لعلوم أخرى كالفلسفة والفلك والحكمة، إلا أن جل اهتمامه بالطب وأشهر وأهم مؤلفاته فيه، وهي كتاب المعتبر الذي كان ابن ملكا يعتز به جدًا، حتى أنه أوصى بأن يتم الإشارة إلى كتابه هذا على قبره.

كلمات مفتاحية:

الطب، مرض السعال، البيمارستان، الأورام، ابن ملكا، الطب النفسي، الخليفة المستنجد.

يعد علم الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان المسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولا وتميزا وتصحيحا للمسار، ولم يقتصر إسهام الحضارة الإسلامية في مجال العلوم الطبية على اكتشاف الأمراض المختلفة، ووصف الأدوية المناسبة لعلاج هذه الأمراض، بل اتسع وامتد إسهام المسلمين في الحضارة الطبية حتى بلغ مرحلة التأسيس لمنهج تجريبي دقيق يتفوق ويسمو على مناهج المدارس الطبية التقليدية التي كانت سائدة قبل الإسلام، كالصينية والهندية والبابلية والمصرية واليونانية والرومانية بل والمدرسة العربية قبل الإسلام، فعلى الرغم مما وصلت إليه هذه الحضارات القديمة من مقدرة فائقة على اكتشاف الأمراض وبعض علاجاتها، فإن سيطرة كهنة المعابد والأديرة في هذه الحضارات القديمة على مهنة الطب قد أدخلت فيها كثيرًا من الخرافات والأوهام المتعلقة باعتقاد سيطرة بعض الأرواح الشريرة على جسد الإنسان مما يسبب له معاناة المرض والوجع، ومن ثم فقد مزجوا بين العلاج بالمفردات الطبية والطلاسم والتعاويذ السحرية.

يعد الطب عند المسلمين من أهم الإنجازات العربية الإسلامية، ذلك لان العرب المسلمين لم يكتفوا بما توصلوا به غيرهم وبما كان لديهم، وإنما قاموا بالدراسة والتجريب والتأليف، فانتهي بهم المطاف إلى تخليد متأثر وابتكارات مهمة في هذا الحقل، من بينها التخصص الذي ظهر نتيجة كثرة عدد الأطباء في البلاد الإسلامية، ولذلك سوف أقوم بتوضيح تلك التخصصات لتوضيح عبقرية العقل العربي المسلم.

عرف (ابن خلدون) علم الطب بقوله: " تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن. وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذية بنضجة وقبوله الدواء أولاً في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة فإنها المدبرة في حالتي الصحة

والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب " [١]

تمتعت بلاد العرب بحكم موقعها الجغرافي بعلاقات واتصالات سياسية واقتصادية وتجارية وثقافية خاصة مع بلاد الحبشة في مرحلة الدين المسيحي، وكذلك مع بلاد الفرس والروم والهند والصين [٢] فاقتبس العرب بعض العادات الطبية من الحضارات المجاورة لهم، وكذلك اعتمد العرب قبل الإسلام على العرافين والكهان والمشعوذين والسحرة، وذلك لاعتقادهم في الجاهلية أن سبب الأمراض هي الأرواح الشريرة. فكان لكل قبيلة عرافها الذين يستشار في كل أمورها وعللها، وكان طب هؤلاء العرافين يخلط بين الرقى والتعاويذ، وكانوا يستخدمون في علاجهم الفصد والكي والحجامة وبعض الأعشاب التي تنبت في بلاد العرب أو تجلب من بلاد الهند والصين. وقد برع الجاهليون في علاج الحيوانات بسبب اعتمادهم عليها في حياتهم وخاصة الأبل والخيل [٣]

وقد برز العديد من الأطباء المشهورين منهم زهير بن جناب الحميري وابن جذيم، والطبيبة زينب طبيبة بني أود، وأشهرهم الحارث ن كلدة (ت ١٣هـ / ٦٣٤م)، وابنه النضر الذي توفي في عام (٢هـ / ٦٢٣م) [٤]

ومع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي قل الاعتماد على العرافين والكهان، وفتح الباب أمام الطب الطبيعي والتداوي على مصراعية لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة، ظهرت أطباء كثر كالحارث بن كلدة وابنه النضر ورفيدة وأم عطية الأنصارية. بل إن الرسول (ص) سمح باستشارة الأطباء حتى ولو كانوا غير مسلمين. فقد طلب من الحارث بن كلدة،ولم يكن على الإسلام، معالجة سعد بن أبي وقاص حين مرض [٥]

ثم بدأ علم الطب ينتعش مع العصر الأموي حيث بدأ التأثير بالإتجاه اليوناني مع مطلع العصر الأموي، وكان لمعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠ هـ / ٦٨٠م) طبيبان مسيحيان من أهل دمشق أحدهما (ابن اثال)، والأخر (الحكم بن الحكم الدمشقي)، وخالد بن يزيد بن معاوية يعد عالمًا بالطب والكيمياء وهو أول من نقل الطب اليوناني إلى العربية [٦] ثم تعاظم هذا الدور في

عهد الخليفة مروان بن الحكم (٦٤هـ / ٦٨٣م) هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب وتعتبر أن المرض عقاب من الله تعالي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجورا عليه في أوربا حتى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بعد أن اتصل الأوربيون بالعالم الإسلامي.

ولقد بنى المسلمون المستشفيات منذ فترة مبكرة في العصر الأموي، وقد عرفت باسم (البيمارستان) وهي كلمة فارسية مركبة وهي: بيمار وتعني المريض، وستان وتعني الموضع، ومعناها (موضع المريض). ولم يعرف العرب قبل الإسلام المستشفيات فكانت تتم في بيت المريض أو بيوت الأطباء. وأول مستشفى في الإسلام بنيت في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦. ٩٦هـ) في عام (٨٨هـ) وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق، وجعل في هذا البيمارستان قسمًا لعلاج الجذام وكذلك قسمًا أخر لعلاج المجانين [٧]

وشهد علم الطب والتداوي نقلة كبيرة وتطور هائل في عهد الدولة العباسية، وعنى خلفاء بني العباس بهذا العلم عناية كبيرة. وأول هؤلاء الخليفة أبو جعفر المنصور الذي استقدم أطباء عدة منهم (ابن بحتيوشع النسطوري ت ١٥٢هـ)، ثم تلاه ابنه جبريل في خدمة الخلفاء العباسيين، وذلك بسبب مرض معدته المزمن ورغبته الزائدة في الطعام الأمر الذي زاد إجهاد هذه المعدة، ولذلك ظل هذا الخليفة مريضًا بمعدته، وكان يلتمس الدواء من أي طبيب نابه يسمه به، فكان يقرب الأطباء إليه ويجزل لهم العطاء برغم ما عرف عنه من الشح، ولقد بنى أبو جعفر بيمارستان للعميان ومأوى للمجاذيب في بغداد [٨]

كذلك اهتم الخليفة هارون الرشيد بالطب، وأسس في بغداد بيمارستانًا كبيرًا لتعلم الطب وللعلاج والحق به مكتبة كبيرة. وقد اشتهر في الدولة العباسية عدد كبير من الأطباء النساطرة السريان مثل بختيوشع، وآل ماسوية، وآل اسحاق، وعدد من الصابئة من أمثال بيت بني قرة [٩]

ووصف الرحالة الأوروبيون العائدون من بلاد الإسلام في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي العلاج المستنير الذي يتلقاه المريض في تلك المراكز، فأوضح المؤرخ ايفيلجا

(Eviliga) بالتفصيل جو الاسترخاء في تلك المراكز العلاجية المحاطة بالنوافير والحدائق وجبات خاصة وحمامات وأدويه وعطور.....الخ، ولكل مستشفى عيادة خارجية ومدرسة طبية والإمكانيات المتاحة للمريض الفقير والغني على حد السواء، ويبدو أن معظمهم كان يعاني من ذهان الهوس والاكتئاب [١٠]

ولذلك تعد مدينة بغداد أحد مراحل الازدهار في المجال الطبي، لاسيما في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فقد ظهر فيها عدد من علماء الطب العام وعلى رأسهم العالم الطبيب الفيلسوف هبه الله بن ملكا الذي بلغ مبلغا هامًا في هذا العلم آنذاك

وكان للطب نظامًا لا يسمح للمتطبب بممارسة الطب إلا بعد اجتيازه امتحانًا فيه ينظمه رئيس الأطباء. ومن أشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت (٣٣١هـ / ٩٤٢م) في بغداد، ومهذب الدين الدخوار في مصر، كما كان الطب يخضع إلى ما يشبه نظام التخصص في أيامنا، ففيهم الطبيب العام، والجراح، الكحال (العيون)، الأسناني، وطبيب النساء، وطبيب المجانين [١١]

كذلك نشأت مدارس الطب وتطور التدريس فيها على منهجين: منهج نظري: يطبق في المدارس الطبية ويشمل دراسة الأمراض وكيفية علاجها، ومنهج عملي: ويشمل التدريب ليشاهدوا طرق الفحص ووصف العلاج، وإذا مضوا مدة الإجازة تقدموا للامتحان، ثم أقسموا اليمين، ونالوا الشهادة، وبعدها يحق له ممارسة مهنة الطب تحت رقابة الدولة. ولقد خرجت مدارس الطب عددًا كبيرًا من الأطباء، فقد أجرت مدرسة بغداد في عهد الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥. ٣٢٠هـ) إمتحانًا لتسعمائة طبيب لإجازتهم بممارسة الطب في بغداد [١٢]

وقد استمر اعتماد هؤلاء الأطباء على تصانيف ومؤلفات اليونان الطبية القديمة بعيدًا عن التجربة والتأليف، حتى أحيت حركة الترجمة التي بدأها العباسيون بترجمة كتب ومؤلفات الحضارات القديمة؛ التراث العلمي والفلسفي اليوناني والبيزنطي والفارسي والسرياني في ما يعرف بصحوة علمية شاملة بدأها الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣م) في بغداد.

ثم ظهرت البوادر الأولى للتأليف في منتصف القرن الرابع الهجري واتسعت في القرن الخامس وازدهرت في القرن السادس موضوع دراستنا.

ومن أشهر المؤلفين في الطب الذين تلو عصر الترجمة أطباء منهم الطبري والرازي وابن العباس وابن سيناء. وأول هؤلاء الأطباء على بن سهل بن ربن الطبري (ت في القرن الثالث) كان نصرانياً من طبرستان واعتنق الإسلام، وأصبح طبيبًا خاصًا للخليفة المتوكل (٢٣٢. ٢٤٧هـ) ومن مؤلفاته (دروس الحكمة) وهو واحد من أقدم المختصرات في علم الطب، ومن تلاميذه الرازي الفيلسوف والطبيب المشهور [١٣] ومن هؤلاء الأطباء الكبار أيضًا الطبيب أوحد الزمان ابن ملكا موضوع دراستنا.

الطبيب والعالم كبير: ابن ملكا

الاسم واللقب: هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكان [١٤] وقيل أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن ملكا البلدي، لأنه مولود ببلد [١٥]

ولد ابن ملكا في سنة (٤٨٠هـ /١٠٨٧م) من أسرة يهودية من أهل الذمة، حتى أنه وصف باليهودي في أكثر عمره [١٦]

وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين من أهل الطب [١٧] وكلام جالينوس [١٨] فكان جل اهتمامه بالطب والفلسفة والفلك، حيث وصف علماء العصور الوسطى بالموسوعيين خاصة في ديار الإسلام، فهم موسوعة في علوم عديدة، وكان منهم العالم الطبيب والفيلسوف ابن ملكا ساعده اطلاعه على كتب المتقدمين والمتأخرين في تشخيص وتحليل وعلاج المرضى الذين يفدون إلى داره بعد ذلك

أخذ لقب هبه الله من شيخه ومعلمه الطبيب الحسن بن سعيد بن هبه الله [١٩] حيث كان لابن ملكا اهتمامه الخاص بالطب من صغر سني، وكان لهذا الشيخ شهرة كبيرة، وله تلاميذ عدة يأتون له من كل مكان، ولكن ابن ملكا لم يقدر على الحضور لانه كان ذميًا يهوديًا.

وكان الشيخ يرفض حضور اليهود لمجلسه، وحاول ابن ملكا بشتى الطرق أن يحضر، فلم يجد حلا إلا أن يتخادم للبواب، وكان يجلس عند باب كبير الأطباء الحسن بن سعيد، وقد وجد الحيلة بان يصاحب بواب الشيخ ويجلس خارج المجلس ليستمع للشروح التي يقدمها الشيخ لتلاميذه من خلف الجدران [٢٠] مما يدل على شدة حرصه على تلقي العلم لأنه جلس هكذا عند باب المجلس لمده سنة وزيادة [٢١]

وذات مرة كان الشيخ الحسن بن سعيد يناقش مسألة مع طلابه محاولًا إيجاد جواب، فلم يقدر تلاميذه على الإجابة، فعرف ابن ملكا الجواب فاستأذن ودخل على الشيخ وقال: بعد أذنك سيدي هل لي أن أتكلم في هذه المسألة ؟ فسمح له الشيخ بالكلام وقال له الشيخ: قل إن كان عندك في هذه المسألة شيء. فأجاب عنها ابن ملكا بشيء من التفصيل، من كلام جالينوس [٢٢] واتبع قوله بأنه قرأ عن حالة مثلها، بقوله هذا جرى ياسيدي في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني وعلق بخاطري من يومها.

تعجب الشيخ من ذكائه وحرصه على العلم، فطلب منه أن يخبره عن الوضع الذي كان يجلس فيه، ويستمع إلى الشرح فاخبره ابن ملكا.

فقال الشيخ من يكون بهذه المثابة والمثابرة ما نستحل أن نمنعه من العلم، فأصبح ابن ملكا من تلاميذه المقربين [٢٣] وأخذ لقب شيخه بعد ذلك. فالإسلام لا يمنع الأخذ باكتشافات ومواهب الأخرين، ووجد الكثير من العلماء من أهل الذمة واشتهروا في بلاد الإسلام، ثم بدأ ابن ملكا رحلته العلمية وشهرته.

وكان له إسهامات واضحة ونظرياته الخاصة التي طبقها بنفسه على حالاته المرضية آنذاك، حتى وصلت شهرته جميع أنحاء بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأصبحت الحالات تفد إلى داره والى مجلسه لتلقي العلم والعلاج.

أصبح ابن ملكا . فيما بعد . ميسور الحال و غنيًا من الحالات التي كان يعالجها خاصة السلاطين، فكان أحد أطباء الخليفة المستجد(٥٥٥ . ٥٦٦هـ / ١١٦٠ . ١١٧٠ م) [٢٤] وذكر ابن

القفطي [٢٥]: لما مرض أحد السلاطين السلاجقة هو (ركن الدين أبو المظفر أرسلان شاه) استدعاه من مدينة السلام بغداد، وتوجه نحوه ولطفه الى ان برئ، فأعطاه العطايا الجمة من الأموال والمراكب والملابس والتحف. وعاد الى العراق كأنه شخص أخر من التجمل والغنى [٢٦] فأصبح غنيًا بعد عودته من رحلة علاج هذا السلطان.

وحينما أصبح غنيا غير من ملابسه وهيئته، وظهرت عليه علامات الغني، فكان يجلس في مجلسه مع تلاميذه عليه ثوب أطلسي [٢٧] مثمن أحمر اللون من هدية السلطان السلجوقي [٢٨]

أهم الحالات التي ذكرها المؤرخون وعالجها ابن ملكا:

١. حالة مريض بالسعال [٢٩]:

دخل عليه يومًا رجل من أوساط أهل بغداد وشكا اليه سعالًا أدركه، و طالت مدته، ولم ينفع فيه دواء. فأمره بالجلوس فقال له: اذا سعلت وقطعت شيئا فلا تنقله حتى أقول لك ما تصنع، فقعد ساعة وقطع، فاستدعاه إليه، وأدخل يده في كم ثوبه الأطلسي وقال له: اتفل فيه، فتوقف خشية على موضع يده من الثوب فانتهره فتفل وضم أوحد الزمان يده على ما فيها من الثوب والتفله،ونظر التفله على الثوب للتأمله [٣٠]

فكان ابن ملكا يصنع تحليلًا خاصًا للتفلة التي تفلها الرجل، ثم قرر له العلاج بعد تلك التفلة والنظر والتأمل فيها.

وبعدما شخص ابن ملكا المرض وصف له الدواء، حيث طلب من بعض الحاضرين أن يقطع من شجرة نارينج كانت في داره [٣١] مما يدل على أنه كان يزرع الأشجار للدواء في حديقة منزله.

فأحضر ابن ملكا النارنجة، وقال للشاكي: كُل هذه، فرفض الرجل وخاف أن يأكل النارنجة، وقال له: متى أكلته ؟ مت ؟!. فقال ابن ملكا: إن أردت العافية، فقد وصفتها لك. فمسكها الرجل وأكل منها حتى انتهى منها. فقال له: أمض وانظر ما يكون في ليلتك، فمض الرجل، ولما كان في

اليوم الثاني حضر الرجل وهو متألم، وقال: ما نمت لكثرة ما نالني من السعال، فقال ابن ملكا لأحد الحاضرين: أحضر لي نارنجة ثانية من تلك الشجرة، فأحضرها إياه، وقال للشاكي: كُلها أيضًا. فخاف الرجل على نفسه مرة أخرى، فقال ابن ملكا: كلها فهي الدواء، فأكل الرجل ومضى، فلما كان في اليوم الثالث جاء فسأله عن حاله. فقال المريض: بت خير مبيت ولم أسعل [٣٢] مما يدل على شفاء الرجل.

فقال له ابن ملكا: برئتُ ولله الحمد وإياك، وأكل النارنج بعدها، وأن تأكل بعدها نارنجة أخرى، يحصل لك ما لا يرجى لك برؤه، وأمره بعدة أمور يفعلها [٣٣]

فلما قام المريض من عنده سأله تلاميذه عن السبب !؟ فقال ابن ملكا: أخذت تفلته في الثوب الأحمر وأحميتها في كفى ساعة، ونظرت فيها هل بقى بعدما تشربه الثوب مما تفل كالقشور والنخالة فلم أجده. ولو وجدته دلني على أن السعال من قرح، إما في الرئة أو في الصدر، وكلاهما صعب، فلما لم أجد شيئًا من ذلك، علمت أنه بلغم لزج زجاجي، وقد لجح بقصبة الرئة وآلات النفس، فأردت جلاءه وأمرته بتناول النارنجة، فلما عاد إلي ووجد شدة علمت انها قد جلت وقطعت ما هناك ولم تستنفذه، فأمرته بتناول الأخرى فجلت ما بقى ونهيته عن استعمال الأخرى لئلا يقرح بكثرة الجلاء فيقع فيما احترز نامئة. فاستحسن الحاضرون ذلك في صناعته. حيث دل على ذكائه الشديد في علاج تلك الحالة [٣٤]

٢. حالة في تفوقه في علم النفس [٣٥]:

كان في عصره شخص يتوهم بأنه يحمل جرة فوق رأسه، وأن الجرة لا تفارقه، فكان كلما يمشي يبتعد عن الأماكن التي سقوفها قصيرة، ويمشي بحذر شديد، وبقى المريض بهذه الحالة مدة كبيرة، فيما يعرف بمرض الماليخوليا [٣٦]

وعرضت حالته على ابن ملكا، ففكر وبحث بمعالجة الوهم بالوهم، وفكر في تهيئة البيئة النفسية الداخلية للفرد، قبل البدء في تطبيق طرق العلاج، وهذا ما فعله عالمنا هبة الله ابن ملكا.

فقال لأهل المريض: إذا كنت في الدار فأتوني به، ثم أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليه وبدا في الكلام معه، واتفقوا على إشارة معينة، بعلاج الإيحاء بالإيحاء، بأن يضرب أحد الغلمان بخشبة كبيرة فوق رأس المريض دون أن يصيبه، وأمر الأخر بأن يرمى بجرة بقوة على الأرض. وكان ابن ملكا في داره، ودخل عليه المريض، وبدأ الحديث معه وأنكر عليه حمله للجرة، وأشار لغلمانه دون علم المريض أن يحضروا، وقال للمريض: سأخلصك من حمل هذه الجرة. فضرب الغلام بالخشبة فوق رأس المريض، والأخر رمى الجرة على الأرض. فلما رأى المريض الجرة مكسورة فرح وغادر الدار " وأثر فيه الوهم أثرًا برئ من علته تلك، ولم يشك أنه الذي كان على رأسه بزعمه "[٣٧]

وهذا باب عظيم في الداواة، وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من المتقدمين مثل جالينوس وغيره في مداواتهم بالأمور الوهمية [٣٨]

٣. حالة ورم من الأورام:

ذكر ابن أبي أصيبعة: أن رجل به داحس (ورم) في مفصل اصبعه، ولم يسيل منه صديد، حضر إلى أوحد الزمان الطيب ابن ملكا، فحين راى ذلك بادر إلى مفصل اصبعه فقطعه. فسأله تلاميذه بأنه اشتد على المريض في علاجه بهذه الطريقة، وقالوا له: لقد اجعنت في المداواة [٣٩] ولموه وهو لا ينطق بحرف.

ومضى ذلك اليوم، وجاء مريض أخر بنفس الداء، ورم في إصبعه، فطلب أوحد الزمان من تلاميذه مداواته وعلاج تلك الحالة. فعالجوه بدون جراحة وقطع الورم، فازداد انتشار الورم حتى قطعوا أصبعه بالكامل، ثم أصبحوا يعالجوا تلك الحالات في الورم بمثل طريقته [٤٠]

فكان ابن ملكا يترك لتلاميذه بعض الحالات يعالجوها . هم . بأنفسهم، خاصة حيتما يدخلون في جدال حول بعض الحالات المرضية. ثم يثبت لديهم أن علاج ابن ملكا في الأصح من علاجهم، خاصة لقراءته لعلوم السابقين وعلاجهم لحالات مثلها.

وقد اشتهر ابن ملكا شهرة كبيرة، فكان الأطباء في زمانه يسألونه مسائل مختلفة في الأمراض ودوائها، فيجيب عنها بخطه فيسطرون ويكتبون ذلك عنه، إلى أن صار مؤلفًا يتناقلونه بينهم [٤١]

إسلام أوحد الزمان ابن ملكا:

ذكر المؤرخون عدة روايات حول إسلام ابن ملكا، اتفقوا فيها على اعتناقه للإسلام، ولكن لأسباب مختلفة. ومن هذه الأسباب:

السبب الأول: أن أحد الشعراء وهو أفلح قد هجاه [٤٢] بقوله:

لنا طبيب يهودي حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه

يتيه والكلب أعلا منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه [٤٣]

فحزن ابن ملكا من هذه الأبيات، وعلم إنه لا يحفظ سمعته إلا الإسلام، فقوى عزمه على ذلك. وكان له ثلاث بنات [٤٤] كباراً، وأنهم ظلوا على اليهودية ولم يدخلن الإسلام، فخشى أنه حينما يموت لا يرثنه، فتضرع إلى الخليفة (المستنجد بالله) في الإنعام عليهن من ماله إذا تركه، وإن كن على دينهن وهو اليهودية، فوافق الخليفة.ولما أخذ الموافقة بذلك أعلن إسلامه، وجلس للتعليم والمعالجة وقصده الناس، وعاش عيشة هنية، وأخذ الناس عنه مما تعلمه الكثير.

السبب الثاني: وفي رواية ابن القفطي: أنه كان في صحبة والى العراق السلطان محمود ببلاد الجيل، وكانت زوجته الخاتون بنت عمر سنجر، وكان السلطان محمود يحبها حبًا شديدًا، فمرضت زوجته الخاتون، وكان الطبيب المعالج لها أوحد الزمان ابن ملكا، وأثناء فترة علاجها ماتت الخاتون، فحزن عليها زوجها السلطان محمود حزنًا شديدًا، فلما عرف ابن ملكا بوفاتها، وخاصة إنه كان الطبيب المعالج لها، وشهد الحزن الشديد من السلطان محمود على زوجته، خاف الطبيب ابن ملكا على نفسه من غضب السلطان محمود وأن يأمر بقتله، لأنه كان يعالجها وماتت بمرضها، فأعلن دخوله في الإسلام لسلامة نفسه، والاطمئنان على روحه من القتل [٤٥]

السبب الثالث: ذكر الصفدي [٤٦] أن ابن ملكا دخل يومًا على الخليفة المستنجد بالله العباسي (٥٥٥ . ٥٦٦هـ / ١١٦٠ . ١١٧٠ م) فقام الحاضرون سوى قاض القضاة فإنه لم يقف له [٤٧] فقال ابن ملكا: يا أمير المؤمنين إن كان القاض لم يوافق الجماعة لكوني على غير ملته (ذميًا) فأنا أُسلم ولا ينتقصني. فأسلم [٤٨]

السبب الرابع: ذكر أن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٦ . ٥٤٧هـ) السلجوقي [٤٩] أصيب بمرض قولنج بعدما افترسه أسد، فعالجه الطبيب ابن ملكا، ولكن مرضه كان شديدًا ومات السلطان، فخاف ابن ملكا على نفسه، وحينما سار في جنازة السلطان أسلم في الحال أمام الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ . ٥٢٩هـ / ١١١٨. ١١٣٥م)، ونجا من القتل، وخلع عليه الخليفة، وحسن إسلامه [٥٠]

وجميع الروايات السابقة تثبت أن أوحد الزمان ابن ملكا أسلم وحسن إسلامه وترك اليهودية، وربما كان إسلامه خوفًا على نفسه من القتل والسجن وتأمينًا لحياته، فوفر له اعتناقه للإسلام الأمن الذي كان يبغيه، واشترط في إسلامه تأمين بناته، ووصى بأن يرثوه حال وفاته.

مؤلفات ابن ملكا:

ألف ابن ملكا عدة كتب الطب والفلك أهمها: كتاب المعتبر، الذي كان يعتز به جدًا، حتى أنه أوصى بأن يتم الإشارة إنه مؤلفه على قبره.

. كتاب: النفس والتفسير

. اختصار التشريح

. مقال: الدواء

. رسالة في العقل

. مقال في سبب ظهور الكواكب ليلاً وخفائها نهارًا، وهو مقال في الفلك [٥١]

وهذه المؤلفات كتبها تلاميذه من ورائه في سؤالهم له في تلك الأشياء، حينما كانوا يحضرون مجالسه التي كان يجلس فيها لعلاج الحالات التي تفد إليه طلبًا للعلاج [٥٢]

أقواله ونظرياته:

كان لابن ملكا أقوال ونظريات في علم النفس والفلسفة والخطابة، تدل على حكمته، وله كلامًا فصيحًا يدل على خبرته في الحياة. قوله في الطب: " إن الطبيب الناجح إذا اقتنع بأن ليس لديه حل بديل عن اجراء العملية الجراحية، فإنه لا يجب أن يعطي المريض الإنطباع بالخوف، حتى لا يجعل المريض متخوف فيصعب شفائه" [٥٣]

ومنها قوله عن الخطابة: " إن الخطيب هو الذي تصدر عنه الخطابة، ومن شروطه أن يكون متدينًا متعففًا فصيحًا بليغًا، يقدر على استمالة السامعين واستدراجهم، ويعرف أخلاق الناس، ويكلمهم على قدر عقولهم، ويكون قوى العزم على الأمر، لا ينفعل من الأشياء التي تغضبه، وأن يعرف المشوريات والمشورة الخير من الشر " [٥٤] الخير الحقيقي أربعة: العفة، الشجاعة، الحكمة، العدالة " [٥٥]

وقوله أيضًا: " سعادة الدنيا لطف الحواس، وجودة المشورة في الأراء، والبراءة من الخطأ والزلل، وحسن العفو، والرفق في الطلب، وكرم الأصل، وأن يكون له أولاد ذكور واناث حسان عفيفات، ويكون له إخوان يساعدونه على ما يهوه، ويكون له الغني والتجمل والثروة، وأن يكون حرًا " وله نظريات عدة في قوانين الجاذبية والحركة [٥٦]

وكان يؤول بعض الكلمات كالأتي:

الجوهر ← كرم الأصل

الكم ← جزل العطاء

الكيف ← يكون له اليسار والاقتدار

الإضافة ← الرياسة

الأين ← المكان الأنيق المبهج

متى ← الوقت الطيب

الموضع ← الهيئة الحسنة

الفعل ← نفاذ الأمر [٥٧]

. مرض ابن ملكا ووفاته:

بالرغم من أن ابن ملكا كان طبيبًا ماهرًا همامًا ومعالجًا خبيرًا؛ إلا أنه أصبح فريسة لأمراض عدة، واستولت عليه آلام عظيمة، لم يطق حملها جسمه ولا قلبه، وذلك أنه عمى وطرش وبرص وتجذم [٥٨]

وقد نجح ابن ملكا في مداواة نفسه من الجذام [٥٩] ويبدو أنه أصيب بعدوى من مرضاه، من خلال التحاليل التي كان يقوم بها نفسه، فأصيب بمرض الجذام.

وذكر البغدادي أن الشيخ أبو البركات ابن ملكا قد عمى في أخر عمره، وكان يملي علمه لى جمال الدين ابن فضلان، وعلى ابن الدهان المنجم، ويوسف والد الشيخ عبد اللطيف البغدادي، و المهذب بن النقاش، كتاب المعتبر الذي كان يعتز به جدًا، وأوصى من يتولاه أن يكتب على قبره: " هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب المعتبر " [٦٠]

اختلف المؤرخون في تعيين تاريخ وفاته، وقيل أنه توفي عام (٥٤٧هـ) [٦١] ومنهم من ذكر أنه توفى عام (٥٥١هـ) [٦٢] وقيل أنه توفى (٥٦٠ هـ) [٦٣] وقيل عام (٥٧٠هـ)، وأنه عاش ما بين ثمانين عامًا وتسعون عامًا شمسية [٦٤]، وعلى ما يبدو أنه توفى عام (٥٦٠هـ).

نتائج البحث

عرض البحث لشخصية علمية متميزة وهو أوحد الزمان ابن ملكا، عالمًا موسوعيًا، وطبيبًا ماهرًا، استفاد استفادة جمة من كون أصله اليهودي في الاطلاع على كتب المتقدمين والمتأخرين.

كانت مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي شعلة حضارية ومنارة للعلم وقبلة للقصاد.

كان ابن ملكا مثالاً يحتذى به للمتعلمين والطلاب والتلاميذ، في الصبر والمثابرة ودحر الظروف والعقبات، من أجل العلم والتعلم، وبما تمتع به من الشغف والنهم منذ صغر سنه لدراسة الطب والفلسفة.

نال ابن ملكا شهرة عظمية وعلا اسمه وغلى ثمنه في مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في مجال الطب بشكل عام، والطب النفسي بشكل خاص في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، فقد وصف بأنه كبير الأطباء. ونال حظوة عند الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، وجنى من وراء ذلك المال الكثير والمكانة السامية. كذلك نال ابن ملكا احترام وتقدير الأهالي الذين توافدوا على داره للتداوي وطلب الشفاء.

تتلمذ على يد ابن ملكا تلاميذ كثر، يعدون من أشهر علماء المسلمين في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

(١) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافي، جـ٣، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦، ص ١٠٢٦.

(٢) أحمد حسنين القرني: قصة الطب عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٥، ٦.

(٣) أحمد حسنين القرني: المرجع نفسه، ص ٧.

(٤) أحمد شوكت شطي: رسالة في تاريخ الطب، جامعة دمشق، ٢٠١٦م،ص ١٢٥، ١٤٩

(٥) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ص ٢٧٤.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٥،بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م، ص ٢٢٤ / ابن النديم: الفهرست،دار المعرفة، ٢٠١٣م، ص ٥١١.

(٧) عمر فروخ: المرجع السابق، ص ٢٦٧ / أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، ٢٠٠٨م، ص ١١.

(٨) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، (د. ت)، ص ٦٤

(٩) ابن جلجل: المصدر نفسه، ص ٦٨. ٧٦، ١٨٦.

(١٠) طارق بن على الحبيب: لمحة موجزة عن تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين، دار المسلم، ١٩٩٩م، ص٢٠

(١١) ابن جلجل: المصدر السابق، ص ١٨٦

(١٢) عمر فروخ: المرجع السابق، ص ٢٦٧ / Nagamai (H.F); Islamic Medicine History and Current Practice, Florida, 2003 , p 21

(١٣) ماهر بعد القادر محمد علي: مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، ١٩٨٨م، ص ٧١ / Nagamai (H. F);op cit , p 22

(١٤) البيهقي: تاريخ الحكماء في طبقات الأطباء، حاشية (١)، ص ١٥٢.

(١٥) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٥٦ / الصفدي: نكث الهيمان، ص ٣٠٤ / ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٣٧٤ / الذهبي: سير أعلام النبلاء، ح٢٠، لبنان، ٢٠٠٤ م، ترجمة ٦٤٨٦، ص ٤٠١٩ / ابن خلكان: قلائد العيان، ص ٢١٤.

(١٦) القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٦.

([١٧]) القفطي: المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

([١٨]) جالينوس: عالم يوناني وفيلسوف كبير (ت ٢٠١م) ولد في برجامون في أسيا الصغري، سمى جالينوس بهذا الاسم بمعنى (المسالم أو الهادئ)، قام برحلات علمية إلى أسيا الصغري والأسكندرية ومراكز طيبة أخرى، وسافر إلى روما ولمع صيته كطبيب وأستاذ في التشريح، وكان من بين الذين عالجهم الإمبراطور ماركوس أوريليوس نفسه، ومكث في روما في ظل عرش الإمبراطور حتى أخر حياته عام ٢٠١م. ألف جالينوس عدداً كبيرًا بلغت أربعمائة مؤلف من الكتب الشاملة لجميع أقسام الطب والفلسفة واهتم بالتجارب العلمية.

جورج شحاته قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧ م،ص ١٠٣ – ١٠٦

([١٩]) اشتهر بأنه كبير الأطباء في عصره، وكان عالمًا فاضلاً في الطب ببغداد، وله تلاميذ عدة يفدون إلى بابه.

([٢٠]) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٣٧٤، الذهبي: سير أعلام، ص ٤١٩، الصفدي: نكق الهيمان، ص٣٠٤.

([٢١]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

([٢٢]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

([٢٣]) الصفدي: نكث الهيمان، ص ٣٠٤.

([٢٤]) الذهبي: سير أعلام، ترجمة ٦٤٨٦، ص ٤٠٥٩

([٢٥]) القفطي: المصدر السابق، ترجمة ٣٢٤، ص ٢٥٦

([٢٦]) القفطي: المصدر نفسسه، ص ٢٥٦.

([٢٧]) أطلسي: مصبوغ ولونه غبرة إلى السواد، معجم المعاني الجامع، مادة أطلس

([٢٨]) القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٦

([٢٩]) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٧٤

([٣٠]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٤

([٣١]) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

([٣٢]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٧

([٣٣]) ابن القفطي: المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

([٣٤]) ابن القفطي: أخبار العلماء، ص ٢٥٨

([٣٥]) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٣٧٤.

([٣٦]) مرض الماليخوليا: مرض نفسي وهمي

([٣٧]) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ٣٧٤.

([٣٨]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٥

([٣٩]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٥

([٤٠]) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ٣٧٥

([٤١]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨

([٤٢]) الشاعر جمال الدين أبو القاسم على بن أفلح العبسي (٤٧٣ . ٥٣٧هـ / ١٠٨٠ . ١١٤٢م) شاعر وكاتب عربي من الحلة، عاش في مدينة بغداد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ج٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٧٥ . ٢٧٧.

([٤٣]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

([٤٤]) الذهبي: المصدر السابق، ص ٤٠١٩.

([٤٥]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٩.

([٤٦]) الصفدي: المصدر السابق، ص ٣٠٤ / ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٧٥.

([٤٧]) الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ – ٥٦٦هـ / ١١٦٠ – ١١٧٠م) وصف بالعدل، ومهتم بالفلك والعلوم.

السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٣٥.

([٤٨]) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٦م، ج ٢، ص ١٥٣.

([٤٩]) السلطان مسعود هو أخر حكام سلاجقة بغداد

([٥٠]) البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٣.

([٥١]) الصفدي: المصدر السابق، ص ٣٠٤ / الذهبي: المصدر السابق، ترجمة ٦٤٨٦، ص ٤٠١٩

([٥٢]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

([٥٣]) البيهقي: المصدر السابق، ص١٥٣.

([٥٤]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

([٥٥]) البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٣.

([٥٦]) البيهقي: المصدر نفسه، ص ١٥٣.

([٥٧]) البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٣.

([٥٨]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨ / ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٧٥

([٥٩]) البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٣.

([٦٠]) ابن القفطي: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

([٦١]) البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٢.

([٦٢]) الذهبي: المصدر السابق، ص ٤٠٥٩

([٦٣]) الصفدي: المصدر السابق، ص ٣٠٤ / ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٧٥.

([٦٤]) الذهبي: المصدر السابق، ص ٤٠٥٩، البيهقي: المصدر السابق، ص ١٥٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن أبي أصيبعة:(موفق الدين أبو العباس؛ أحمد بن سديد الدين القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري ت٦٦٨هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار المعارف، ٢٠٠٨م.
- البيهقي (ظهير الدين على بن زيد بن محمد ت ٥٦٥هـ): تاريخ حكماء الإسلام، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٦م.
- ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان ت ٣٧٧هـ): طبقات الأطباء والحكماء، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، (د. ت)
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ): المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافي، جـ٣، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦
- الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ت ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤ م.
- السيوطي: (جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ): نكت الهميان في نكت العميان، دار المدينة، القاهرة، ١٩١١م.
- الطبري (محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، جـ ٥،بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م.
- ابن القفطي (جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ): أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ليبسك، ١٩١٩م.

. ابن النديم (محمد بن إسحاق المعتزلي ت ٣٨٤هـ): الفهرست، دار المعرفة، ٢٠١٣م.

ثانيًا: المراجع:

. أحمد حسنين القرني: قصة الطب عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م
. أحمد شوكت شطي: رسالة في تاريخ الطب، جامعة دمشق، ٢٠١٦م
. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، ٢٠٠٨م
. جورج شحاته قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧ م
. سليم عمار: المجلة العربية للطب النفسي، يناير، ١٩٨٤
. سيد محمد غنيم: سيكولوجية الشخصية، دار النهضة، القاهرة، (د. ت)
. طارق بن على حبيب: لمحة موجزة عن تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين، دار المسلم، الرياض، ١٩٩٩م.
. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ج٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م
. عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م
. ماهر بعد القادر محمد علي: مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، ١٩٨٨م
. محمد عثمان بخاتي: الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م
. محمد عثمان بخاتي: علم النفس الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٢م.

. محمود البستاني: الإسلام وعلم النفس، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٢م

. المراجع الأجنبية:

Nagamai (H. F); Islamic Medicine History and Current Practice, Florida, 2003